## المحاضرة الخامسة

# فن الرسالة في الأدب العربي القديم

الرسالة أو الترسل هو فن من الفنون النثرية وهو وسيلة التواصل بين الناس. وهي في اللغة من الفعل رَسَلَ والاسم منه الرسالة والرسول والإرسال بمعنى التوجيه، تراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض[1] .

وفي الاصطلاح هي قطعة نثرية تطول وقد تقصر تبعًا لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه،بليغة العبارة. وأسلوبها حسن رشيق وألفاظها منتقاة، ومعانيها طريفة.[2]

استعمل القدامى الرسالة في شتى أنواع الترسل واستعملوها في وسيلة الاتصال والإبلاغ والتفاهم فكانت الرسالة إشارية من أقدم أشكال الرسالة ،حيث كان يغلبها الجانب المادي مثل راية الاستسلام وإشعال النيران للضيافة وهداية الضالين في الصحراء.

وكانت لغوية التي تعتمد الرمز وسيلة لنقل معانيه و هو من أنواع الإشارة وإذ يكون ظاهر الكلام فيه عاديًا ساذجًا. بل يدل أحيانًا على هذيان المرسل إلا أن يكون مضمونه عميقًا ويحتاج إلى رجل فطن ليستخرج منه المغزى المراد به.

كانت الرسالة في هذا العصر يغلبها الطابع الشفاهي في غياب الخط والتدوين وموادهما. لأنه يعتمد بطبيعته على الألفاظ اللغوية التي تؤلف فيما بينها كلاما مفهوما يحمله رجل بعد أن يحفظه من المرسل ليبلغه إلى المرسل إليه بنصه الحرفي الذي قال المرسل أو معانيه الجوهرية التي أرادها المرسل إن أمكن. وهذا ما أدى إلى سقوط كم هائل من الرسائل في ذلك العصر حسب ما جمعه أحمد زكي صفوت في كتابه "جمهرة رسائل العرب".

وكان في هذا العصر الترسل الشعري وكثرت الرسائل الشعرية التي تمثل الوجه الحقيقي الأصيل للترسل الجاهلي ،حتى كانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الغاية آنذاك هو الشعر الذي ذكر القدماء منزلته الرفيعة في الحياة الثقافية للعرب.

وفي العصر الإسلامي كانت الكتابة في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم- تشمل كتابة الوحي وتدوين الرسائل التي كان الرسول-صلى الله عليه وسلم-يكتبها للملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام[3] منها رسالته إلى ملك الروم هرقل"بسم الله الرحمن الرحيم .من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .سلام على من إتبع الهدى .أما بعد: فأنني أدعوك بدعاية الإسلام تسلم يؤتك الله آجرك مرتين" .

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، تحقيق: عبد الله الكبير علي وآخرون، ط2، د ت، ص 1644.

[2]– عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976، ص 448.

[3]– شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. مصر ط5، دت ،ص10.

وكذلك كتابة العهود والمعاهدات. ونهض فن الرسائل بدور كبير مع تطور حياة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والسياسية فكان أدب الرسائل وليد الحاجة،لذا تنوعت موضوعاتها تبعًا لتلك الحاجة.

فتطورت الرسالة تطورًا ملحوظا من خلال بدايتها ومصطلحها حيث أصبحت تبتدأ بالبسملة مع النبي –صلى الله عليه وسلم- إذ كان يفتتح الكتاب بقوله "باسمك اللهمّ" ثم تحوّل فافتتح الكتاب "بسم الله" فكانت رسائله موجهة، تعالج موضوعات تشريعية وتوجيهية،لها صلة بالدين الجديد ينشر فيها الأصول والأحكام والسنن ويبين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم ويوضح فيها أصول الفرائض وأحكامها.

وتتميز رسائل النبي -صلى الله عليه وسلم- باللغة المرسلة وميلها إلى الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب و المبالغة ،بعيدة عن التكلف، خالية من عبارات التفخيم.

و في عهد الخلفاء الراشدين ظل أدب الترسل غالبًا للمكاتبات النبوية إذ بقيت الرسائل في هذا العصر متأثرة بتلك التيارات المختلفة منذ فترة مبكرة إلى ما استجد من أحداث خطيرة بعد وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم-. حيث كانت الكتب في الغالب بلغة واضحة الدلالة. صادقة اللهجة خالية من التراكيب الصوري. فهي وثائق تاريخية سياسية لها أهميتها البالغة في تصوير الأحداث.حيث نجد أقصر وأبلغ رسالة في زمن الخلفاء الراشدين لعمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص:"بلغني أنك تجلس في مجلس الحكم متكئا،فاجلس متواضعا يابن العاص وإلا عزلتك.دع التأنق في لبس الثياب وكن لله لابسا ثوب الخوف والندم .ولو كان للمرء في أثوابه شرف،ماكان يخلع أجملهن في الحرم".
فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة في نوازعهم ودعم حججهم وإبطال مزاعم خصومهم والكشف عن مساوئهم.

وفي العصر الأموي نجد أن الرسائل كثرت خاصة منها السياسية حيث كثرت رسائل الشيعة في هذا العصر وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين بن علي –رضي الله عنه-وما كان بينه وبينهم من مراسلات تحض على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحاب الشرعيين .وامتازت رسائلهم باختيار المعنى والألفاظ والسجع في الكلام. أما عن ابن الزبير وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبراني كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار الثقفي. ونرى ولاته يكاتبون من يوجهونهم إلى الخوارج.[1]

فكثرت الرسائل السياسية بين الخلفاء ،يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم وهي سنة وضعها أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- سار عليها بني أمية وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولونهم على الولايات.

[1]- شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 459.

ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولاتهم كما كثرت في عهد عبد الملك بن مروان خاصة بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخرسان وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قادته ويكثرون من الرد عليه، وكان يكتب أحيانًا إلى الثوار أنفسهم وكان يكثر من مراسلة قادته في حروب الخوارج الشبيبية وفي فتنة ابن الأشعث وحروب خرسان، ورسائله إلى الأمراء مثل رسائله إلى سليمان بن عبد الملك ،فكانت رسائله تمتاز بتزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة.[1]

فقد تراسلا كل من الصحابي معاوية بن سفيان وملك الروم هرقل،حيث يقول فيها ملك وقيصر الروم:"علمنا بما وقع بينكم وبين علي بن طالب ،وإنا لنرى أنكم أحق منه بالخلافة ،فلو أمرتني أرسلت لك جيشا يأتون إليك برأس علي".ورد معاوية على هرقل قائلا:"أخان وتشاجرا فما بالك تدخل فيما بينهما ،إن لم تخرس أرسلت إليك بجيش أوله عندك وآخره عندي يأتونني برأسك أقدمه لعلي".

وأيضا رسالة الخليفة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي يعنفه ويوبخه على تجرئه على أنس بن مالك :"بسم الله الرحمن الرحيم .من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف الثقفي،أما بعد فانك عبد طَمَتْ به الأمور فسموت فيها وعدوت طَورك وجاوزت قدرك وركبت داهية أدا وأردت أن تَبُورَني فإن سَوَّغَتُكَهَا مضيت قدما وإن لم أسوَّغْكُهَا رجعت القهقري،فلعنك الله عبدا أخفش العينين،منقوصالجاعرتين ،انسيت مكاسب آبائك بالطائف،وحفرهم الآبار،ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل.والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب....... ".ابن كثير البداية والنهاية 9/154

ونجد في هذا العصر رسائل عمر بن عبد العزيز التي كانت كتاباته وعظية، وأنه لم ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ويرد عليه برسالة[2].

وشاع في هذا العصر الكتب الوعظية والسياسية والكتابات الشخصية بحكم تباعد العرب في مواطنهم،وتأثير بعض الظروف من موت يقتضي التعزية أو ولاية تقتضي التهنئة أو شفاعة عند ولي لقريب أو صديق أو كتاب أو اعتذار.

ومن أشتهر بهذا اللون عبد الله بن مروان بن جعفر الذي قتل بخرسان، فقد كان بليغ اللسان. يعرف كيف يحول الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجده في رسالته إلى إخوانه معانتًا فهو يخير ألفاظه وينتقي المعاني الطريفة ويزينها بالاستعارات والطباقات.

ومن خصائص الخطابة في هذا العصر استهلالها بذكر اسم الله وحمده مثلما كانت في العصر الإسلامي وذات أفكار متسقة مرتبة الأقسام محكمة التسلسل وأسلوبها يختلف ويتفاوت أغراضها وموضوعاتها. أما أساليبها متنوعة لجذب انتباه السامع وتحقيق الإقناع والإمتاع وألفاظها سهلة بعيدة

---

[1]- نفسه، ص 460.

[2] – نفسه، ص 462.

الغموض وملاءمتها للمعاني ،وجاءت الجمل أحيانا قصيرة معبرة عن المعاني بإيجاز وكذلك أفرطو في المحسنات البديعية وخاصة السجع.

أما في العصر العباسي فقد نشطت الرسائل السياسية نشاطًا واسعًا مما ساعد على ذلك كثرة الدواوين كديوان للجيش وديوان للرسائل[1]. مع حاجة الدولة للتواصل مع الرعية أو حاجتها لشرح موقفها من قضية عامة[2] ومع توافر مقومات وأدوات الكتابة كالوضوح الجمالي الفني وعذوبة الأداء على الإطلاع على طائفة من المعارف،ومن رسائل العصر هذا رسائل العهود والمبايعات، ورسائل الأمان وطلب الهدنة والمصالحة ورسائل الإنذار وطلب الطاعة ورسائل الخلفاء إلى الولاة والحكام والعمال وتصريف شؤون الدولة ورسائل التهديد والرعية ورسائل الفتوح والتبشير بها ورسائل الإصلاح.[3]

نجد رسالة هارون الرشيد إلى ملك الروم"نقفور"يرد عليه لما استفزه برسالة حول رد مال الروم في زمن الملكة "ايريني"والا السيف بيننا وبينك.فيرد عليه امير المؤمنين:"بسم الله الرحمن الرحيم،من هارون أمير المؤمنين إلى "نقفور" كلب الروم،قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ،والجواب ماتراه ليس ما تسمعه،والسلام".وخرج هارون بنفسه187هـ/803م حتى وصل هرقلة قرب القسطنطينية واضطر "نفقور"الى الصلح والموادعه،وحمل مال الجزية إلى الخليفة كما كانت تفعل الملكه "إيريني"من قبل ،ولكنهولنه نقض المعاهدة ورجع الرشيد إلى قتاله في 188هـ/804م وهزمه هزيمه منكرة ،وقتل من جيشه أربعونا ألفا ،وجرح"نقفور".البدايةو النهاية لابن كثير

ونجد رسالة ابن هارون الرشيد المعتصم بالله إلى ملك الروم لما سمع بان امراة مسلمة ظلمت في بلاد الروم فنادت "وامعتصماه"فاستجاب لها المعتصم وأرسل جيشا إلى عمورية ،فأرسل "تيودور"إمبراطور الروم إلى المعتصم رسالة يهدده فيها .وقال :"قرأت كتابك ،وسمعت خطابك،والجواب ماترى لا ماتسمع (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار)".و زحف عليهم وكان فتح عمورية في رمضان 223هـ. سنة838م

وبالانتقال إلى العصر الأندلسي وجدنا أن الرسائل هي من أهم فنون النثر في هذا العصر وذلك كون كتاب الرسائل من فرسان الشعر الأندلسي استخدموا مواهبهم الشعرية وذوقهم الأدبي للارتقاء بأساليب تعبيرهم والتفنن به. وتنوعت الرسائل في شتى المجالات منها: الرسائل السلطانية التي كانت تصدر عن ديوان الخليفة من جهة للعمال والقادة والأعداء ورسائل الأمان والمبايعة والبشائر.[4]
نذكر منها رسالة الأمير عبد الرحمن الداخل ملك قرطبة الى أهل قشتالة الأندلسيين والنصارى حول وضع الأمان وعقد المهادنة ودفع الإتاوة من ظلم نصارى الشمال فيقول فيها:"بسم الله الرحمن

---

[1]- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط8، مصر، 1972، ص ص 465، 466.

[2]- محمد الدروبي، الرسالة الفنية في العصر العباسي، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1999، ص 13-14.

[3]- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 448-449-450-451-452.

[4]- القلشندي، صبح الأعشى في صناعىة الإنشاء وزارة الثقافة المؤسسة العامة المصرية، د ت ، د ط، 490 إلى 502.

الرحيم،كتاب أمان من الملك العظيم عبد الرحمن،للبطارقة والرهبان والأعيان ،والنصارى والأندلسين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان ،كتاب أمان وسلام ،وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب ،وعشرة آلاف رطل من الفضة ،وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ،ومثلهما من البغال،مع ألف درع ،وألف بيضة ،ومثلها من الرماح،في كل عام إلى خمس سنين". كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعون ومائة.[1]

وقد ازدهر فن الرسائل السياسية في العصر الأيوبي ازدهارًا ملحوظًا وكان من أشهر كتابها القاضي الفاضل،ومن الرسائل ،رسالة أرسلها إلى صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي في بغداد،ورسالة أخرى للقاضي الفاضل يصف الحروب والجيوش وأحداث المعركة وبشارة بفتح القدس كتبها القاضي الفاضل يُبشر بذلك.

**<u>أنواعها:</u>**

**<u>أ- الرسالة الديوانية:</u>** تعني بها كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي،والتي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحُكم وتنظيم المملكة وضبط الشؤون الإدارية ومراسلة الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها جزءًا من النشاط السياسي.[2]

**<u>موضوعاتها</u>**: حول التولية ورسائل العهود والمواثيق وشؤون الرعية والجيش والحكم والسلطة.

**<u>ومن خصائصها:</u>**

- الدقة والسهولة في التعبير والتقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية والمساواة في العبارات والبراءة من التهويل والتخيل.
- التزام في مصدر رسالته بالتحميدات الخاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد.
- تضمين الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء وحجج الكُتاب .
- تضمين أبيات شعرية في بعض الرسائل.

**<u>ب- الرسائل الإخوانية:</u>** هي تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء .ولهذا النوع من الرسائل ميدان فسيح للإبداع يتبارى فيه الأدباء والكتاب وتتيح لأقلامهم وقرائحهم أن تنطلق على سجيتها وأن يعبر أصحابها عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة وأساليب قوية.

**<u>موضوعاتها:</u>** للرسائل الإخوانية أنواع شتى تتنوع بحسب الموضوعات التي تعالجها،وهي أكثر شمولاً من الرسائل الديوانية من حيث تنوع الموضوعات.تعالج هموم العصر، تدور حول الإيخاء، الصداقة...

---

[1] احمد العزاوي،رسائل ديوانية أندلسية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع،مطابع الرباط،المغرب ،ط1,2013،ص25

[2] – علي بن محمد، النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس، مضامينه، وأشكاله، ج1، دار الغرب، د ب، ط1، 1990، ص 208.

فالرسائل الإخوانية هي التي يكتبها الناس لبعضهم البعض،وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان والمراد المكانية الدائرة بين الأصدقاء.[1]

من موضوعاتها:التهاني والتعازي والتهادي، الشفاعات، الشوق، الزيارة، خطبة النساء، الاستعطاف، الاعتذار، الشكوى، الشكر، العتاب، السؤال عن حال المريض، الأخبار والمداعبة.

**خصائصها:**

-التحية والسلام وتضمنها القرآن الكريم والقرآن الكريم
- ارتقاء أسلوب التعبير وجزالته.
- عذوبة اللفظ ومتانته.
- كثرة السجع.
- استخدام الترادف.
- اليسر والوضوح في اللفظ.
- ثراء المضمون وعمق دلالته.
- التعبير عن الأحاسيس والمشاعر.
- التصوير الفني والإيقاع الموسيقى.

من أشهر كتابها: عبد الحميد الكاتب، ابن العميد، الصاحب بن عباد، أبو حيان التوحيدي، ابن زيدون، ابن شُهيد الأندلسي...إلخ.

[1]– القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج8، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1922، ص 126.